بيار بايل، تعليقات فلسفية، 1686 (مقطعان)

بيار بايل الذي هرب من فرنسا في العام 1681، نشر في العام 1686، تحت إسم مستعار، تعليقه الفلسفي على هذه الكلمات ليسوع المسيح: "أكرهه على الدخول". وهو يدين اللاتسامح الذي يحكم أكثر فاكثر فرنسا خاصة من بعد ان قام الملك لويس الرابع عشر بإلغاء إعلان نانت واستعمل حججًا للسماح للديانة الكاثوليكية الرومانية بتبرير لجوئها لاستعمال العنف القهري.

- في المقطع الأول، المأخوذ من بداية الكتاب، يدافع بايل ضد الاحكام المسبقة المرتبطة بالعادات، ويقول بان الإنسان، المترفع عن مصالحه الذاتية، يبحث عن العقل (النور البدائي)، الذي وحده، هو كوني (بواسطة هذه الوسيلة فحسب، يشرح بايل طوال تعليقه الفلسفي، يمكن ان نصل إلى نهاية العنف الديني)
- في المقطع الثاني، يطوّر بايل مثالًا واقعيًا: البروتستانت أنفسهم (وهو ينتمي إليهم)، يجب ان يقبلوا بالتعددية الدينية، لأن أحد لا يمكن المقاتلة من أجل الحقيقة إلا من خلال سلاح العقل (هنا يطوّر بايل حجة كان كان اقتبسها من كاستيليون قبل قرن).

ولكن بما أن الأشواق والاحكام المسبقة لا تظلم غالبًا إلا الأفكار المتعلقة بالعدالة الطبيعية، أريد أن يعرفها كل رجل بشكل عام، وأن يفكر أيضًا بمصلحته الخاصة، وبعادات وطنه. لانه يمكن ان يحصل ان شوقًا خفيفًا يقنع رجلًا أن الفعل الذي يفكر بالقيام به هو امر جيد وممتاز وانه يتوافق مع العقل: يحصل احيانًا ان قوة العادات التي تم إدخالها إلى نفس الأنسان بعمر الطفولة ان توجد عنده شيئًا من المصداقية حث لا يوجد مصداقية. وبالتالي من أجل التحرر من هاتين العقبتين، أريد من كل إنسان أن يأخذ بعين الاعتبار النور الطبيعي نسبة إلى الاخلاقيات، والذي يرتفع إلى اعلى من مصالحه الخاصة، ومن عادات بلده، وان يسأل نفسه بشكل عام: هل هذا الأمر هو حق، وإن تمّ إدخاله إلى بلد حيث لا يتوافق هذا الأمر مع عاداته، ويكون هنا حرًا في الاخذ به أو عدم الأخذ به، هل يجب أن ننظر ونفحص هذا الأمر بشكل بارد إذا ما كان يستحق أن يتم اعتماده ام لا؟ أظن ان هذا التجريد يبدّد العديد من الغيوم التي تقف أحيانًا حاجزًا بين عقلنا وبين هذا النور البدائي الكوني، النابع من الله من اجل أن يظهر للإنسان المبادئ العامة للعدل (الجزء الأول، المقطع الأول، ص 90).

إذا تساءلنا إذًا بشكل محدّد ماذا أفكر فيما خصّ الدول البروتستانتية التي لا تعرف إلا ديانة واحدة، أجيب، إذا كانوا يقومون بذلك لاعتقادهم بأن الاعتقادات الأخرى خاطئة، فهم على خطأ. إن الخطأ لا يجب أن يحارب إلا بسلاح الحقيقة؟ ان نحارب الاخطاء بضربات العصا، أوليس الأمر يعبر أن العبثية نفسها بان نقاتل الفرق العسكرية بالعظات والشروحات؟ من هنا، على السياد، من اجل ان يقوموا بشكل جيد بواجبهم، لا يجب ان يرسلوا جنودهم، وجزاريهم، ومعاونيهم وعملائهم ضد من يكون يعلم عقيدة مختلفة عن عقيدتهم: بل يجب أن يتركوا اللاهوتيين، والمتخصصين في هذا المجال ان يقوموا بهذا العمل بكل قواهم من اجل دحض العقيدة الأخرى. وإن لم يستطيعوا بهذه الطريقة أن يتفوقوا على الفريق الآخر، ولا أن يجبروه على ان يعتمد عقيدة متطابقة وعقيدتهم، فيجب أن يتركوه بسلام، وأن يكتفوا بأن يقوم هذا الفريق الآخر بطاعة القوانين البلدية والسياسية. هذا هو ردي على البروتستانت ممن ينظرون إلى العقائد الاخرى على انها بكل بساطة عقائد خاطئة: حتى ولو خاطئة فإن الأمر لا يعطيهم الحق في سوء معاملة رعاياهم (القسم الثاني، المقطع 5، ص 245)

المصدر: بيار بايل، التعليق الفلسفي، 1686، منشورات جان-ميشال، غروس، باريس، بريس بوكيه، 1992.